

من "نقطة ضعف" إلى مصدر قوة

قراءة قرآنية- اجتماعية في نموذج القيادة الحاضرة في المواجهة

إعداد

مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية



في عالم تُقاس فيه القيادات بعدد الحواجز الأمنية التي تحيط بها، وبمستوى العزلة التي تفصلها عن جمهورها، يبرز سؤال جوهري: هل تصنع الجدران الصلبة هيبةً حقيقية؟ أم أن الهيبة الأعمق تُبنى حين يكون القائد في قلب الناس، لا فوقهم؟ إن التجربة السياسية المعاصرة تكشف أن مفهوم "الزعيم المحصّن" بات معيارًا تقليديًا للقوة، حيث يُنظر إلى كثافة الحماية وندرة الظهور بوصفهما دليلًا على الأهمية والخطورة في آنٍ واحد، غير أن هذا الفهم، على رسوخه الظاهري، يخضع لمراجعة جادة حين يُقرأ في ضوء القرآن الكريم، وسيرة المعصومين، والتحليل الاجتماعي-النفسي لهوية الجماعات. يُثار أحيانًا أن من نقاط الضعف في بعض أنماط القيادة الإيرانية قلة الاحتماء المفرط، أو الظهور العلني، أو عدم بناء حواجز نفسية فاصلة بين القائد والناس ويُنظر إلى هذا السلوك بوصفه مخاطرة غير محسوبة، أو انكشافًا أمنيًا قد يُستغلّ في لحظة توتر، غير أن قراءة أعمق- قرآنيةً وتاريخيةً واجتماعيةً- تكشف أن ما يُسمّى "ضعفًا أمنيًا" قد يتحول إلى قوة رمزية وأخلاقية تؤسس لجيل يؤمن أن القائد جزءٌ من الناس، يعيش ما يعيشون، ويتحمل ما يتحملون، ويقف في الميدان ذاته الذي يقفون فيه. فالقرآن لم يقدم القائد الرسالي بوصفه كائنًا فوق بشري، بل أكد بشريته، وهذه البشرية ليست انتقاصًا من المقام، بل شرطًا في شرعيته، لأن القائد حين يشارك قومه الخوف والجوع والألم، يصبح أكثر قدرة على صناعة الثقة، ومن هنا كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مثالًا خالدًا في رفض الامتياز الطبقي، حتى استشهد وهو في محرابه بين الناس، لا في حصنٍ منيع. وكذلك نهضة الحسين بن علي التي رسّخت أن انكشاف القائد في سبيل المبدأ قد يحوِّله إلى ضميرٍ خالدٍ للأمة. وفي هذا السياق يُستحضر نموذج السيد علي الخامنئي بوصفه مثالًا على القيادة التي لا تُحاط بهالةٍ تعزلها عن جمهورها، بل تقدّم ذاتها في إطار "القدوة المشاركة" لا "الزعامة المتعالية"، فقد تعرّض في شبابه لمحاولة اغتيال تركت أثرًا دائمًا في جسده، ومع ذلك ظلّ حاضرًا في المشهد العام، متحدثًا مباشرةً إلى الناس، مؤكدًا أن القيادة ليست امتيازًا يُصان بالخوف، بل أمانة تُصان بالثبات. إن استذكار هذا النموذج لا يعني إلغاء البعد الأمني أو التقليل من ضرورته، بل يعني إعادة تعريف القوة ذاتها: فالقوة ليست في إخفاء القائد عن شعبه، بل في قدرته على أن يكون بينهم دون أن يفقد وقاره، وأن يواجه التهديد دون أن يتحول إلى أسطورةٍ معزولة. وهنا يتحول ما يُظنّ "نقطة ضعف" إلى رصيدٍ رمزي عميق، يزرع في الوعي الجمعي فكرة أن القائد لا يعيش فوق سنن البشر، بل يخضع لها كما يخضعون، وقد يموت كما يموتون، لكن الفكرة التي يحملها تبقى أكبر من جسده. بهذه القراءة، يصبح الانكشاف المدروس موقفًا تربويًا قبل أن يكون خيارًا سياسيًا، رسالةً تقول إن القيادة مسؤولية تكليفية لا مكان فيها لترف الامتياز، وإن الأمة التي ترى قائدها جزءًا منها، لا طبقةً فوقها، تكون أقدر على الصمود حين تغيب الأجساد وتبقى المبادئ.

أولاً: التأصيل القرآني- بشرية القائد أساس شرعيته

حين يؤكد القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: 110) فهو لا يكتفي بإثبات بشرية الرسول، بل يؤسس لقاعدة قيادية عميقة: الشرعية في المنظور القرآني لا تقوم على التفوق الوجودي، بل على حمل الرسالة، فالنبي بشر، لكنه مكلف، إنسان، لكنه مؤيد بالوحي، والفرق بينه وبين الناس ليس في الطبيعة الإنسانية، بل في الأمانة التي يحملها. هذه الحقيقة القرآنية تقطع الطريق على نزعة التأليه السياسي أو الروحي للقادة، فالقرآن يرفض أن يتحول القائد إلى كائن فوق التاريخ أو فوق السنن الكونية، بل إن السنن نفسها- الجوع، الخوف، الإصابة، الموت- تظل جارية عليه كما تجري على غيره. يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ (الأنبياء: 34) فلا خلود جسدي لقائد، ولا عصمة من سنن الحياة، وإنما الخلود للقيم التي يحملها، وفي معركة أحد، حين اضطربت الصفوف بعد إشاعة مقتل النبي ﷺ، نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران: 144)، الآية هنا تصنع تربية جماعية: المشروع لا يسقط بموت القائد، بل إن موت القائد امتحان لصدق الانتماء للمبدأ، إنها عملية فصل بين "الشخص" و"الرسالة"، بين "الجسد" و"الفكرة".

ومن هذا المنطلق، يصبح تعرّض القائد للخطر، أو احتمالية استهدافه، جزءاً من منطق الرسالة لا خلافاً فيها. فالرسول ﷺ جرح في أحد، وكسرت ربايعيته، وسال دمه، ومع ذلك لم تنقص هيبتته، بل زادت، لأن الهيبة في المنظور القرآني ليست نتاج حصانة جسدية، بل نتاج صدق معنوي. هذه الرؤية تحصن الجماعة من الارتباط المرضي بالشخص، وهو نمط نفسي خطير يجعل بقاء الفكرة مرهوناً ببقاء الفرد، بينما يريد القرآن أمةً قادرة على الاستمرار بعد فقدان القائد، لأن انتماءها ليس لصورته، بل لقيمه، وحين يدرك الناس أن قائدهم يمكن أن يُستهدف أو يُصاب- كما حدث في محاولة اغتيال السيد علي الخامنئي عام 1981- فإن صورة "الزعيم المعصوم من الخطر" تتحطم، لتحلّ محلها صورة "الإنسان الرسالي الشجاع"، وهنا تتحول الواقعة من حادث أمني إلى لحظة رمزية: القائد ليس فوق سنن الحياة، لكنه يختار البقاء في ميدانها.

إن الوعي ببشرية القائد لا يضعفه، بل يعمق شرعيته، لأنه يرسخ معادلة قرآنية واضحة:

- التفوق ليس في الطبيعة، بل في التكليف.
- العظمة ليست في النجاة من الخطر، بل في الثبات عنده.
- القيادة ليست امتيازاً وجودياً، بل مسؤولية أخلاقية.

بهذا الفهم، يصبح ما يُظنّ "انكشافاً" تأكيداً على صدق الانتماء للرسالة، فالقائد الذي يعيش تحت السنن ذاتها التي يعيشها شعبه، ويخضع لاحتمالات الألم والموت كما يخضعون، يعلمهم درساً عملياً في التوحيد: أن البقاء لله وحده، وأن المشروع أكبر من الأشخاص، وأن الرسالة لا تقوم على الأسطورة، بل على الإنسان المؤمن الذي يمشي على الأرض... ويصبر.

ثانياً: شواهد من أهل البيت- القرب من الناس قوة لا هشاشة
إذا كان القرآن قد أسس لبشرية القائد، فإن سيرة أهل البيت عليهم السلام جسدت هذه الحقيقة في الواقع العملي، حتى تحولت إلى مدرسة أخلاقية في فهم القيادة، ففي سيرة علي بن أبي طالب نجد أوضح تجلٍ لمعنى القرب من الناس بوصفه مصدر قوة لا علامة ضعف.

لم يكن أمير المؤمنين يعيش خلف الأسوار، ولا يحيط نفسه بهالة سلطوية تفصله عن المجتمع، وكان يلبس كأفقرهم، ويأكل أخشن الطعام، ويجوب الأسواق، ويحمل همّ العدالة في تفاصيل الحياة اليومية، وحين قال: "أقنع من نفسي بأن يُقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر؟" لم يكن يعبر عن زهد شخصي فحسب، بل عن فلسفة حكم: القيادة مشاركة في الألم قبل أن تكون تصدراً للمشهد.

هذا القرب لم يُضعف هيئته، بل جعلها هيبة أخلاقية عميقة، وحين استشهد في محرابه، لم يكن محاطاً بترسانة حراسة، بل كان بين الناس، في بيت الله، في قلب المجتمع، ظاهرياً، قد يُقرأ ذلك بوصفه انكشافاً أميناً، لكن التاريخ أثبت أن استشهاده لم يُنه مشروع، بل حوّل إلى معيارٍ خالد للعدالة... لقد خسر الجسد، وربحت الفكرة حضوراً لا يخبو.

وكذلك في نهضة الحسين بن علي في كربلاء، حيث لم يختر الاحتماء بصفقات سياسية تحفظ حياته، ولم يبن حصناً عسكرياً يؤمن بقاءه الشخصي، بل خرج علناً، مخاطباً الأمة، معلناً موقفه بوضوح. كان يعلم أن الانكشاف قد يقود إلى الشهادة، لكنه أدرك أن الاختباء خلف حسابات البقاء قد يقتل الرسالة ذاتها.

في كربلاء، لم تكن الشهادة لحظة غياب، بل ذروة حضور، ولم يكن الدم نهاية الدور، بل بدايته في الوعي الجمعي، ومن هنا نفهم أن مدرسة أهل البيت لا ترى في القرب من الناس مخاطرة عبثية، بل ترى فيه شرط الصدق، فالقيادة التي تنغلق على نفسها خوفاً من المصير، قد تحفظ الجسد، لكنها تخسر الرمز، أما القيادة التي تعيش بين الناس، وتتحمل المصير ذاته، فإنها تزرع فيهم معنى المساواة الوجودية: القائد ليس أقدس من الرسالة، ولا أعلى من المبدأ.

ومن زاوية اجتماعية، هذا النموذج يبني ثقة عميقة، لأن الناس بطبيعتهم يميلون إلى من يشاركهم الواقع لا من يراقبهم من علٍ، فحين يرون القائد يمشي بينهم، ويخضع للظروف ذاتها، ويواجه الأخطار نفسها، تتكوّن رابطة وجدانية تتجاوز حدود السياسة إلى فضاء الانتماء الأخلاقي.

هكذا تحوّل القرب في سيرة أهل البيت إلى طاقة رمزية كبرى، ولم يكن هشاشة، بل شجاعة، ولم يكن نقصاً في الحذر، بل وفاءً لمنطق الرسالة، ومن هذا المنبع التاريخي يمكن فهم أن الانكشاف في سياق أداء الواجب الرسالي ليس ضعفاً، بل تجسيداً عملياً للصدق، وبرهاناً على أن القيادة في الإسلام ليست امتيازاً طبقياً، بل تكليفٌ يُدفع ثمنه حضوراً وتضحية.

ثالثاً: القراءة الاجتماعية- النفسية- كسر المسافة وبناء الهوية الجمعية

من منظور علم النفس الاجتماعي، لا تُبنى الكاريزما المستدامة على الغموض ولا على التفوق الرمزي المجرد، بل على المشاركة الوجدانية (Emotional Identification)، فالقائد الذي يعيش نمط حياة قريباً من الناس، ويتحدث بلغتهم، ويظهر بينهم بلا مبالغت بروتوكولية، لا يكتسب فقط قبولاً سياسياً، بل يرسّخ ما يُعرف بـ الشرعية العاطفية، أي تلك التي تنبع من شعور الناس بأنه "واحدٌ منهم".
عندما تقلّ المسافة النفسية (Psychological Distance) بين القائد وجمهوره، يحدث تحوّل عميق في البنية الإدراكية للجماعة، فبدل أن تُبنى العلاقة على ثنائية "هو/هم"، تتشكل هوية جمعية عنوانها "نحن"، وفي نظريات الهوية الاجتماعية (Social Identity Theory)، تُعدّ هذه النقلة حجر الأساس في استدامة الولاء، لأن الأفراد لا يدافعون عن شخص بقدر ما يدافعون عن صورة أنفسهم المنعكسة فيه.

وعليه، فإن القائد الذي لا يُغالي في عزلته الأمنية ولا يُشيد حول نفسه جدراناً رمزية عالية، يرسل رسالة نفسية غير مباشرة:

• أن حياته ليست أغلى من حياة أتباعه.

• وأن المخاطر التي تواجههم هي ذاتها التي يواجهها.

• وأن القيادة مسؤولة مشاركة، لا امتياز نجاة.

في المقابل، قد تُنتج القيادة المتحصّنة إلى حد العزلة شعوراً ضمناً بأن القائد "أثمن" وجودياً من الجمهور، حتى لو لم يُصرّح بذلك، وهذه الفجوة النفسية قد تؤدي- على المدى البعيد- إلى تآكل التعاطف، لأن الناس يشعرون أن التضحية موزعة بشكل غير عادل، أما حين يختار القائد الظهور في أوقات التهديد، أو يتحمل مخاطر محسوبة دون أن ينسحب إلى الظل، فإن "كشف الموقع" يتحول إلى رأسمال رمزي (Symbolic Capital)، فالمسألة هنا ليست تهوؤراً، بل رسالة ثقة: الثقة بالناس، وبالوعي الجمعي، وبأن الحماية الحقيقية ليست في الجدران السميكة، بل في عمق الانتماء الشعبي، وفي هذا الإطار يمكن فهم نموذج المرشد علي الخامنئي من زاوية اجتماعية- نفسية، إذ إن حضوره المتكرر في الفضاء العام، رغم ما واجهه من تهديدات سابقة، يعزز صورة "القائد المشارك" لا "الزعيم المعزول" وهذه الصورة تُنتج جيلاً يتعلم أن القيادة ليست هروباً من المخاطر، بل تقدماً في الصفوف الأمامية معنوياً ورمزياً.

ومن الناحية التحليلية، فإن نقل مركز الشرعية من "الحماية" إلى "التضحية" يبدّل طبيعة العلاقة بين القائد والجماعة، فبدل أن تكون الشرعية قائمة على القدرة على البقاء، تصبح قائمة على الاستعداد للبلد، وهذا التحول يعمّق الإيمان بالمشروع، لأن الأتباع حين يرون أن قائدهم لا يتمسك بالحياة أكثر منهم، بل يتمسك بالمبدأ، يزداد استعدادهم هم أيضاً لتحمل التكاليف. وهكذا، فإن ما قد يُقرأ ظاهرياً بوصفه انكشافاً أمنياً، يمكن- في قراءة اجتماعية- نفسية أعمق- أن يكون استراتيجية لبناء هوية جمعية متماسكة، تُدرك أن القائد ليس أفضل من الناس في حق الحياة، لكنه أسبقهم في تحمّل تبعات الموقف. ومن هنا تنشأ قوة ناعمة لا تُقاس بعدد الحراس، بل بعمق الثقة، ولا بسماكة الجدران، بل بصلابة الوعي.

رابعاً: بين الواقعية الأمنية والرسالة الأخلاقية

لا يعني ذلك إنكار البعد الأمني أو التقليل من ضرورته، فحفظ النفس واجب شرعي وعقلي، لكن الفرق يكمن في المنهجية: هل تتحول الحماية إلى عزلة؟ أم تبقى إجراءً وظيفياً لا يمسّ فلسفة القرب من الناس؟ ففي نموذج السيد علي الخامنئي، يظهر هذا التوازن: حضور خطابي مباشر، تواصل دوري مع فئات المجتمع، تأكيد دائم على ثقافة "المقاومة والصبر"، وعدم إضفاء صورة أسطورية على الذات، هذا الخطاب يؤسس لجيل يرى القيادة مسؤولةً تكليفيةً، لا امتيازاً طبقياً.

خامساً: من "الزعيم المحمي" إلى "القائد القدوة"- حين تصبح العائلة جزءاً من معادلة التضحية

التحول المفاهيمي بين "الزعيم المحمي" و"القائد القدوة" لا يتوقف عند حدود الخطاب، بل يُقاس بمدى استعداد القائد أن يُدخل نفسه وأقرب الناس إليه في معادلة المخاطر ذاتها التي يطلب من أمته تحمّلها، وهنا تبرز خصوصية النموذج الذي قدّمه المرشد علي الخامنئي، إذ لم يقدم نفسه بوصفه مركزاً محفوظاً من دائرة التهديد، بل بوصفه جزءاً من مشروع يرى أن الطريق إلى تحقيق المبادئ الكبرى محفوظٌ بالتضحيات- حتى في مواجهة القوى الكبرى.

على مدار أربعة عقود، واجه الخامنئي تحديات جسيمة في السياسة الدولية والصراع الإقليمي. وكان العديد من المحللين يتوقعون أن أي مواجهة عسكرية مباشرة مع الولايات المتحدة و"إسرائيل" قد تستهدف مستويات عليا من القيادة الإيرانية. وفي أحداث شباط 2026 أن ضربة جوية مشتركة شنتها الولايات المتحدة و"إسرائيل" استهدفت مواقع قيادية في طهران، ما أسفر عن استشهاد السيد المرشد الخامنئي، وأن عدداً من أفراد أسرته المقربين استشهدوا في الهجوم نفسه، من بينهم ابنة، وصهر، وحفيده، ما يعكس أن العائلة لم تكن بمنأى عن دائرة المخاطر، بل كانت جزءاً من نفس الجسد الوطني المتعرض للصراع.

هذه الوقائع تعكس جانباً رمزياً في فهم "القيادة الرسالية": عندما يتقاسم القائد مصيره مع من يحبّ ويقدر، فإنه ينعكس ذلك على إدراك الجماعة لفكرة التضحية المشتركة لا كفكرة مجردة، بل كواقع يتقاسمه الجميع.

والأعمق في نموذج القيادة هو فلسفة "المشاركة في المصير" التي تتجاوز الفرد إلى الأسرة والمحيط الاجتماعي، حين لا تُمنح عائلة القائد امتيازات وجودية أو حصانات استثنائية تُخرجها من دائرة المخاطر العامة، فإن الرسالة تصبح أقوى: القيادة ليست امتيازاً عائلياً، بل مسؤولية مشتركة يتحمّلها الجميع- قائداً وشعباً وعائلة.

هذا النموذج الرسالي يضرب في العمق فكرة "القائد الأثمن من شعبه". فالنموذج التقليدي يقوم على معادلة ضمنية مفادها أن بقاء الزعيم أولوية مطلقة، وأن حياته وأمن عائلته مقدّمان على غيره. أما النموذج الرسالي فيقلب المعادلة:

- القائد واحد من أتباعه.
- أسرته جزء من هذا الشعب.
- يخضعون سنن الحياة ذاتها.
- ويتقاسمون القلق ذاته.
- ويتحمّلون تبعات الخيار ذاته.

بهذا الفهم، تصبح صورة "القائد القدوة" ليست مجرد شعارٍ سياسي أو ديني، بل حالة وجودية موثقة في اللحظات الحاسمة، حيث تتقاطع إرادة القيادة الصادقة مع حقيقة التضحية المشتركة، فتنتقل الشرعية من مجرد وظيفة إلى تجربة وجود مشترك يبنى عليها وعي جماعي متين.

الخاتمة

ما يُسمّى "نقاط ضعف" في بعض أنماط القيادة قد يكون- في ميزان الرسالة- مخزون قوة أخلاقية، فالقيادة التي لا تختبئ خلف الامتيازات، ولا تُحصّن نفسها نفسياً فوق الناس، تؤسس لثقافة يرى فيها الجيل أن القائد إنسانٌ يحمل الأمانة، ويعيش المخاطر ذاتها، ويؤمن أن الموت في سبيل المبدأ ليس خسارة بل وفاء، وفي هذا المعنى، يغدو نموذج السيد المرشد الخامنئي مثلاً لقراءة قيادية ترى في القرب من الناس مصدر شرعية، وفي الاستعداد للتضحية عنوان عزة، وفي بشرية القائد سرّ خلوده الرمزي.

فالقائد الذي يمشي بين الناس... يزرع فيهم شجاعة أن يمشوا بدونه إن لزم الأمر، لأن المشروع أكبر من الأشخاص، والرسالة أبقى من الأجساد.

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٦/٤/٢٠١٢، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلا عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتاجاته العلمية الا بموافقة خطية صريحة، ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- لا تعبر الآراء الواردة في الدراسات او الاوراق البحثية والمقالات عن الاتجاهات الفكرية التي يتبناها المركز وانما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232



Alfaiidcenter2011@gmail.com



www.al-faidh.com



العراق - بغداد - الكرادة

